الجوع والتاريخ

تلخيص عن ولز

اسماعيل مظهر

للاشتغال بفلاحة الارض واستغلالها اثر كبير في تكوين التاريخ الانساني . فان بدء استغلال الارض وفلحها يعتبر فتحاً جديداً في تطور الحضارة . وللاشتغال بالزراعة تدرجات دقيقة وخطى تطورية تكوّنت حلقاتها خلال ازمان طويلة ترجع الى ما لا يقل عن عشرين الف سنة على الاكثر وثمانية آلاف سنة على الاقل

وقبل هذا التاريخ كان الانسان حيواناً من الحيوانات النادرة الوجود . كان الانسان من السوائم المفترسة ، لا يمتاز عن بقية الحيوانات الا بميزتين : الاول — انهُ كثير التنقل محب للهجرة من مكان الى مكان . والثانية — انهُ يستخدم ادوات خاصة . وعلى الجملة كان متوحشاً ، يعيش في جماعات صغيرة ، قدرتها على التفاهم بالكلام لم تكن كاملة في الراجح . وكانت ملكيتهُ تنحصر في الاشياء المنقولة دون الاشياء الثابتة ، وينفق كل حياته جاداً وراء الصيد طلباً للغذاء ، وتتعاقب عليه فترات طويلة لا تتسق فيها احواله فمن فترة مفرطة الطول يطوي فيها على الجوع والحاجة الشديدة ، الى اخرى ينعم فيها بالامتلاء وما فوق الكفاية . كان يتبع سير الحيوانات وجولاتها التي تطلب فيها الغذاء ، او الهجرة اتقاء تغاير الفصول . كان حراً ، وكان محتاجاً . فحياته اذن كانت محوطة بالخطر الدائم ، مدخولة بالمخاطرات التي لا بدَّ منها

انتقل الانسان من هذه الحالة الى حالة اخرى ينتج فيها طعامه ويحفظه للحاجة . بدأ اولاً بايلاف قطعان من بهائم الانعام التي يصيدها ، ولا يكترث للبقاء في مكان الههم الا حيث يجد حبوباً او جذوراً او ثماراً يكتفي بها عن اللحوم . غير ان جولاته في الصيد كانت تتقيد حينذاك بوجود المراعي التي تغتذي بها قطعانه التي ألفها ، وبانتظار الغلة مما زرع . ثم تكاثرت لديه الادوات وتعددت الوسائل . فكان ذلك سبباً في ان يتكاثر الانسان في بعض البقاع تكاثراً لم يعرف من قبل ثمانية آلاف خلون من السنين . بل بلغ تكاثره حداً لم يبلغه فيه اي نوع من انواع القردة العليا . فبنى البيوت وحاز الاملاك . وتبدل من السعي وراء الغذاء بالصيد ، حالة استقرار اشتغل فيها بالزراعة مستهدياً بتعاقب الفصول ينتج غذاءه بعرق جبينه . وخزن الطعام . وهنا بدأ الانسان طور العمل وبدأت مشكلة العمال تأخذ صورتها البدائية . فمن وجبات كانت تأتي عفواً وبحسن الطالع حيناً ، وبالمخاطرة والمغامرة حيناً آخر ، وقّتت الانسان وجباته ونظمها . وكان هذا طور انتقال عظيم الاثر في تاريخ الحضارة . فان الانسان قد انتقل فيه من حيوان يعيش عيش المصادفة والاتفاق ، الى حيوان « اقتصادي » نظم الحياة

والانسان هو الحيوان الوحيد من بين ذوات الثدي — Mammalia — الذي خطا هذه الخطوة الكبيرة . فان تاريخ الطبيعة لا يدلنا على حيوان من ذوات الثدي استطاع ان يجتاز هذه المنازة الخيفة من مناوز الحياة . فالقندس — Beaver — يبتني ويخزن والسحاب يؤلف قطعاناً وجماعات ، والكلاب تدفن العظام . ولكن لا يجب ان ننسى ان هذا ليس بكاف لتنظيم الحياة على الصورة التي استطاعها الانسان . اما الحشرات فقد سبقت ذوات الثدي في هذه الناحية وحياة النمل والنحل وتكوينها جماعات تعاونية رشيدة ، لأسمى المثل التي نضربها

وقبل ان يأخذ الانسان بعادة الاستقرار ، في عهد التنقل والتجوال ، خرجه الاشفاق والوجل وعضته الحاجة بنابها السام مرت بالانسان كل هذه الاطوار قبل ان يضع نظام العمل المنتج. ولقد بدأ العمل في عهد الانسان الظّراني القديم — Paleo-lithic ولكنهُ كان عملاً بالصدفة ولمجرد التسلية . فكان يكب على عمل الادوات التي تلزمهُ حيناً بعد حين ، ولكنها كانت تُجتَلَبُ بايدي الذين يحتاجون اليها عادة . ويعكف على دبغ الجلود . وانصرف البعض الى الصيد ، كما تفرغ غيرهم الى العناية بالنار يذكونها بالوقود لئلاّ تخبو . فان من اكبر الكوارث التي كانت تنزل بالانسان في ذلك العهد البعيد ، ان تخبو ناره . ويذهب بعض ثقاة الباحثين ان جماعات الانسان الاولى كانت تعهد الى فئة منهم بخدمة النار ليكونوا مسؤولين عنها . ومن ذلك انحدر الينا بعض الطقوس التي لا تزال مقدسة في بعض الاديان . والغالب ان عبادة النار طرف موروث من هذه العادة القديمة . وبالجملة نريد ان نقول ان في العصر الذي اتخذ فيه الانسان الصيد وسيلة لمعاشه ، لم يكن هنالك من نظام للعمل على ما يفهم من معنى العمل الدوري المنتظم المرهون بظروفه اي العمل كما نفهمهُ الآن

***

على ان اكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الانسان البدائي لم يكن يقيم للشهامة ولا للنخوة او النجدة معنىً . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الاّ اسلحتهم وهم على استعداد لدفع الطوارئ . ولا شك في ان العناية بالاطفال كانت ايضاً من نصيب النساء

كانت هذه الحالة سبباً في ان يذهب البعض الى القول بان النساء كنّ اول من بدأ في فلح الارض وهذا المذهب لا تنقصهُ المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الاكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لان الرجال كانوا يخرجون دائماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد ان يكون النساء هنّ اللائي لاحظنَ ان الحبوب تنمو في الامكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أخرى يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الارض قرباناً لإلٰه من الآلهة عسى ان يعوّض عليهم ما بذروا اضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في ان اول طور من الاطوار التي تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذره الغير فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرُّعاة » — Pastoral — يرجح ان يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الاول . وليس مما يبعد

احتماله ان يكون بين عادة التضحية بالنفس البشرية والبذار ، علاقة بدأت منذ ذلك العهد الذي عكف فيه الانسان على استلاب المحاصيل الزراعية التي كانت تترك ليتم نضجها . فإن انساناً كان يُذبح ويترك حيث كان البذار ليحرس الزرع حتى يعود اصحابه اليه . ويغلب ان تكون الزراعة قد بدأت في قطع صغيرة من الارض تفلحها النساء بايديهن ، فكانت مصدراً إضافياً للغذاء . والمرجح ان الزراعة لم تصبح شيئاً ذا بال في حياة الجماعات البدائية ، الا تحت تأثير ظروف استثنائية

وانهُ ليسهل عليك ان تتصور كيف ان الانسان البدائي قد لاحظ الفائدة من الزرع في الاراضي التي ينتابها الفيضان في ازمان دورية من السنة . فهم كانوا يبذرون مادة عيشهم في الماء قبل انحساره تماماً ، فيجدون انهُ ارتدَّ اليهم اضعاف ما كان بين ايديهم . ويقول الاستاذ « اليوت سميث » ان الزراعة النظامية باعتبارها حاجة لاساوي وعبثاً ، بدأت في مصر . والحق أنهُ لا يوجد على ظهر الكرة الارضية بقاع من الارض اكثر ملاءمة من مصر لتعليم الانسان ضرورة الزرع في ازمان دورية . والراجح ان الزراعة النظامية بدأت في اراض كانت تنتابها الفيضانات . ومن هنا لا يصعب على الانسان ان يفكر في الوسائل التي يكرر بها فعل الطبيعة . فالطبيعة تغمر الارض بالفيضان ، وهو يغمرها بطرق الري الساعي

بيد انهُ لا يجب ان يغيب عنا ان الزراعة ليست حضارة . فان زراعة الحنطة قد ذاعت الى شواطئ المحيط الاطلانطيقي — بحر الظلمات — والمحيط الهادئ ، بانتشار الانسان الظّراني الحديث — Neolithic — ويرجع ذلك الى ١٥٠٠٠ او على الاقل الى ١٠٠٠٠ سنة قبل أن تبدأ الحضارة في ان يكون لها وجود حقيقي . ذلك لان الحضارة شيء اكثر من العكوف على زرع الحنطة في ازمان دورية . انها عبارة عن استقرار جماعة من الناس في بقعة ما يمتلكونها ويزرعونها على التوالي جماعة تعيش مستقرة في مشيدات تأهل بهم ، فتكوّن مدينة او قلعة ، ويكون لهم فوق ذلك اصول من العرف او القانون تجري عليها المعاملات

ان اول الاشياء الضرورية التي احتاج اليها الانسان الظّراني الحديث ليستقرَّ استقراراً تاماً في مكان ما بعد ان كان استقراره مرهوناً بكثرة الارزاق ، كان من غير شك نبعاً يزوّده بحاجته الدائمة الى الماء ، ووجود العلف الكافي لبهائمه ، والغذاء اللازم له ، ثم وجود المواد التي يشيد منها مساكنه . كان من الواجب لكي يستقر ان يجد كل الاشياء الضرورية على مدار الفصول ، بحيث يكفى الحاجة التي تلجئهُ الى التجوال . ولا ريبة في ان هذه الضرورات كان من الممكن ان يحصل عليها الانسان البدائي اذا ما هبط اي وادٍ من وديان اوربا او آسيا التي تجري فيها الانهار . وفي مثل هذه الوديان استقرَّ الانسان منذ ازمان موغلة في القدم ، كما نستدل على ذلك بقدم مساكن البحيرات في سويسرا غير اننا لا نقع على بقاع اجتمعت فيها هذه الظروف ، فكانت اكمل او اشد ملاءمة مما هي في مصر وما بين النهرين — دجلة والفرات — وعلى شواطئ الخليج الفارسي

في هذه البقاع ينابيع لماء لا تغيض . وقوة الاشعة التي ترسل بها الشمس مما تحتمله الاجسام البشرية . ناهيك بغلات تكاد تكون محققة النتائج عاماً بعد عام . ويقول هيرودوتس ان الحنطة كانت

تغل للمزارع مائتي ضعف ما يبذر ويذكر بلنيوس انها كانت تحصد مرتين ، ثم تكون بقاياها علفاً للاغنام . وكانت تلك البقاع غنية بالنخيل وكل صنوف الثمار الاخرى . اما مواد البناء فتعتبر غنية بها والوسائل كثيرة . وما بين النهرين تكاد تعدل مصر من هذه الوجهة

وفي مثل هذه البقاع يمسك الانسان عن التجوال ويستقر من غير ان يتفكر فيما يمكن ان تخبيء الاقدار . وقد يتكاثر النسل ويلهي الناس التكاثر حتى يخيل اليهم ان كثرتهم دريئة لكل خطر يأتي من ناحية الغزو الخارجي . ولقد تكاثر الناس في هذه البقاع فعلاً حتى بلغ عددهم مبلغاً لم يبلغ مثله في أيّ من البقاع الاخرى وعلى مدى تاريخه الماضي . وعني الانسان بسكنه فاصبح آمن في المادية وانقرضت الحيوانات المفترسة من مساحات كبيرة من الارض ، وزاد الامن على النفس ، فاعتاد الناس ان يمشوا في الطرقات وفي خلال المزارع غير متقلين بالسلاح شأن اسلافهم ، وبدأ السلام بين الناس أن يكون ضرورة ، فسالموا . وبالجملة فان الانسان في هذه البقاع قد امتدت جذوره أكثر مما امتدت في اي بقعة اخرى من الارض

***

وكانت مصر وما بين النهرين اصلح البقاع واكثرها ملاءمة لاستقرار الانسان . على ان جغرافية هذه البقاع قد تغيرت مما كانت عليه منذ سبع آلاف سنة مضين . فان وديان البحر الاحمر ووديان شرقي البحر المتوسط ، كانت مغمورة بالمياه في ذلك الحين . ولكن شواطيء بلاد العرب ، وعلى الاخص الجزء الجنوبي الغربي منها ، كانت اكثر خصباً مما نعرف في كل ما تبع ذلك من العصور . وكان البحر الاحمر يتصل ببوغاز طبيعي بالبحر المتوسط ، كما ان الخليج الفارسي كان اكثر امعاناً في الامتداد الى الشمال

في الوقت الذي بدأ الانسان يستعمر فيه وديان الانهار العظمى ، كانت تتكوّن في بقاع اقل خصباً وارقّ حالاً واكثر بعداً عن الملاءمة لحياة الاستقرار ، كغابات اوربا الواسعة العريضة ، والصحاري العربية ، وسهول آسيا التي ما كانت الطبيعة تجود عليها بخير اكثر من انها تصبح مراع صالحة خلال ادوار معينة من السنة — كانت تتكوّن جماعات من الناس اقل عدداً ، ولكنهم انشط وأشجع وأصبر على المشاق ، نشأوا من سلالات تختلف عن السلالات المتحضرة ، فكانوا الذين تدعوهم جماعات البدو البدائية . وعلى الضد من الجماعات التي استقرت وعكفت على الزراعة ، كان هؤلاء البدو يعيشون في الجهة من عرف الحضارة مروّعين مخاطرين بأنفسهم وبأموالهم وأولادهم . كانوا بالقياس الى الاولين نحاف الاجسام جوعى . ما يجمعهم شيء بقدر ما يجمعهم التعاون على الصيد . وما يحفزهم الى الحرب مع جيرانهم الّا رغبة الحصول على المراعي ليسدوا من قطعانهم رمقاً ليس من دونه شيء الّا الموت . ولقد يحدث ان ينتقل اليهم اسلوب عمل السلاح واستخدام المعادن الذي استكشفه المتحضرون ، فيزدادون قوة وفروسة . وبذلك انتقلوا بجهد المتحضرين من العصر الحجري الى الحديث

الى العصر البرونزي — Bronze Age — Neolithic فاشتد بهم النسمي للقتال وأخذت عليهم الرغبة فيه ، لما ان ارتقى سلاحهم فأصبح امضى وأفتك . ناهيك بأنهم كانوا خفاف الحركة سريعي الانتقال لما ان حفزتهم الحاجة الى ان يكونوا احصف واسرع ، فكانوا

على انه لا يجب ان يخيل الينا ان حالة البدو طور ضروري يجب ان يسبق حالة الاستقرار والتحضر . فان الانسان لم يكن منذ الأحيوانا بطيء الحركة والانتقال يتبع صيده ويخفي الى غذائه على قدر الحاجة . ثم اختلفت الطرق . فنزعت جماعات الى ترك عادة الانتقال بتة فاستقرت وتحضرت ، وجدت اخريات الى زيادة السرعة والتنقل فكانت بدواً رحلاً . وأخذ المتحضرون يعتمدون في حياتهم على الحبوب لتكون غذاءهم . وعمد البدو الرحل الى اللبن ليكون رأس غذائهم . وبهذا نرى ان اختلاف اسلوبي الحياة انتهى بنقيضين

ولم يكن من مفر ان يتصادم النقيضان ، المتحضرون والبدو ، وان يظهر البدو للمتحضرين في ثوب برابرة اجلاف ، وان يظهر المتحضرون للبدو في لباس الليونة والخنث ، فيتخذون منهم مرعى خصيباً ومورداً للسلب والنهب . فكانت تخوم الحضارات الناشئة مسرحاً للغزو المتتالي والصدام الدائم ، بين قبائل البدو والقبائل الجبلية من ناحية ، وبين المتحضرين الذين هم اكثر عدداً ، ولكنهم اقل في الطعان جلداً

ولم تتجاوز هذه الحال ان تكون مناوشات او غزوات على التخوم . فان المتحضرين كانت لهم غلبة العدد . وكان البدو يغزون ليسلبوا ، اذ لم تكن الاقامة في مستطاعهم . وهذا التنابذ المتبادل قد يستمر على ما صورنا اجيالاً عديدة . ولكن لا تلبث الحال على هذا طويلاً ، حتى يبرز في الميدان زعيم (او قبيلة) من خلال هذه الفوضى المستحكمة في حياة البدو ، فيكون اشد عزماً واصلب عوداً فيفرض عليهم بتفوق قبيلته ان يدينوا بالاتحاد لقوته . فاذا دانوا له ، فالويل اذن لاقرب حضارة تتجه اليها انظارهم . ينقضون عليها كالسيل المزبد ، ويجتاحون السهول المذللة المسالك المجردة عن السلاح ويبدؤون حرباً للغزو والاقامة ، فبدلاً من ان يحملوا بعد الغزو سلاحهم وغنائمهم ، يستقرون في الأرض المغزوة ، وتصبح برمتها لهم غنيمة وسلباً . ويرتد اصحاب الارض من المتحضرين عبيداً يدفعون الجزية او قطاع احشاب او حمالي ماء ، وينقلب البرابرة الاجلاف ملوكاً وامراء واسياداً لهم صفة الارستقراطية والنبل . ثم يأخذون في التحضر ويتعلمون من المهزومين المغلوبين على امرهم الفنون واساليب الترف التي يعكف عليها عبيدهم المتحضرون . ثم تمتد الرِّبالة الى اجسامهم ، ويعرف الشبع طريقه الى بطونهم ، ولكنهم يظلون اجيالاً عديدة حائزين لكثير من صفاتهم البدوية عاكفين على الكثير من عاداتهم القديمة ، فيخرجون للصيد ويزاولون الالعاب الرياضية ، فيركبون الخيل او يستبقون بالمركبات ، في حين انهم ينظرون الى العمل وعلى الاخص الى الزراعة ، نظر من يؤمن بأنه نصيب المغلوبين ومن حظ السلالات الدنيا والطبقات السفلى في المجتمع

« البقية في باب الاخبار العلمية »